

من تاريخ المدن اليمنية (2):

(المعلا، شقرة، زنجبار، جعار) **

شقرة:

يعود تأسيس مدينة شقرة إلى حوالي القرن السابع عشر عندما بدأت منطقة أبين تتوزع بين يافع و بين العائلة المالكة الجديدة (آل الفضلي). ففي القسم الشرقي من أبين كانت القبيلة الرئيسية التي تعتبر نفسها من سلالة حمير هي قبيلة (المرقشي) أما (آل فضل) الذين سُمِّي باسمهم قسم من منطقة أبين فهم دخلاء على المنطقة و من المولدين غير الشرعيين كما تقول بذلك الوثائق البريطانية بذاتها. و يقرر مساعد الوالي البريطاني في عدن (إف. أم. هنتر) عام 1886م في كتابه (القبائل العربية حوالي عدن) أن أصل العائلة الفضلية يكتنفه الغموض وتغلغه الأسطورة.

و قد أصبحت شقرة هي العاصمة الفضلية منذ تكوينها و حتى تأسيس مدينة زنجبار في الأربعينات من هذا القرن كعاصمة لسلطنة الفضلي. و كانت ميناءً مزدهراً قبل إحتلال الإنجليز لعدن، فقد كان بُنْ منطقة يافع يجمع ثم يصدر إلى الخارج بواسطة السفن الأجنبية التي كانت تتردد عليه و على ميناء أحور في الشرق. و قد أدى إزدهار ميناء عدن إلى تدهور ميناء شقرة لأن الأول أصبح يجتذب شراء البن من يافع و المناطق الشمالية من اليمن لذلك كان تدهور كل من المخا و شقرة على حساب إزدهار عدن.

و يسجل لنا التاريخ مواقف القبائل الفضلية المشرّفة ضد إحتلال عدن، فقد قامت هذه القبائل بعدة هجمات ضد عدن أما بمفردها أو بالتعاون مع القبائل اللحجية. و قد دفع هذا الإنجليز إلى أن يقصفوا ميناء شقرة و الساحل الفضلي من سفنهم الحربية التي جُرّدت لذلك الغرض و كان ذلك عام 1840م. و في يوليو 1841م حدث هجوم ضد الإنجليز في عدن تم أنبعوه في 29 يوليو بعملية إختطاف و قتل لبعض عملاء الإنجليز، ففي هذا التاريخ جاء أربعة فدائيين من شقرة إلى باب عدن و دعو مترجم (هينس) أحمد بن عيدان إلى الخروج لمناقشة بعض الأمور، فلما خرج إليهم قاموا بقتله قرب باب عدن أمام الحرس البريطاني آنذاك.

و بعد الهجمات المتكررة من شقرة ضد الإنجليز، قام الإنجليز في عام 1865م بإرسال تجريدة عسكرية برّية و بحريّة إلى شقرة و قصفوا المدينة و دمروا معظم بيوتها. و قد أخذتهم سنوات لإعادة بناء المدينة المهدامة، و في منتصف السبعينات من القرن الماضي قُدّر عدد سكان الميناء بخمسمائة نسمة.

و خلال المدة الممتدة تقريباً من منتصف القرن التاسع عشر حتى بداية الحرب العالمية الثانية، تميزت هذه الفترة بالحروب و المنازعات المستمرة بين العاصمتين شقرة و الحصن عاصمة سلطنة يافع السفلى. و دارت هذه الحروب حول قضيتين هما قضية (عبر النازعة) و (حصن حلمة) فوق حيد

حلمة. ففي حوالي منتصف القرن الماضي حفرت قناة (أو عبر) النازعة من وادي بنا في منطقة اليافعي و ذلك من أجل حمل مياه لإسقاء القسم الأعلى لواحة أبين في المنطقة الفضلية. و في عام 1872م وُقعت إتفاقية وافق فيها السلطان الفضلي بدفع مقدار من المال متفق عليه مقابل ذلك.

و على الرغم من التوقيع على هذه الإتفاقية إلا أنها أصبحت المدخل للتعبير عن المنافسة الحقيقية بين السلطنتين من أجل تملك كل منها الجزء الأكبر لمنطقة أبين على حساب السلطنة الأخرى. و حتى قبائل السلطنتين فقد وجدت في هذا النزاع مبرراً لها لتعمل مرة بجانب هذه السلطنة و مرة بجانب السلطنة الأخرى. و لم يعد أحد منهما يستطيع السيطرة على قبائله. فنحن نرى مثلاً القبيلتين الفضليتين (آل حيدر) و (آل فليس) مرة يقفون بجانب سلطانهم الفضلي و مرة أخرى بجانب سلطان يافع السفلى ضد سلطانهم و هكذا دواليك. و بالنسبة لحصن حلمة الذي كان يقع في الحدود بين السلطنتين، فقد كان الفضلي يطالب بتهديمه لأن إحدى الإتفاقيات سبق أن قضت بذلك. بينما يصرّ السلطان اليافعي على إبقائه حتى يتمكن من مراقبة تحركات أعدائه.

لقد أصابت هذه الحروب الطويلة حول قناة الماء، و التي أستمرت ما يقارب المئة عام، منطقة أبين بأسوأ الأضرار، فمن جرائها قتل المئات و أصبحت دلتا أبين الخصبة بلقعاً خراباً تنعق اليوم فوق سمائه. و هذه الحرب الطويلة المدمرة هي في الواقع صورة نموذجية لما كانت عليه الحروب القبلية في الماضي و التي أدت إلى تدهور الحضارة اليمنية.

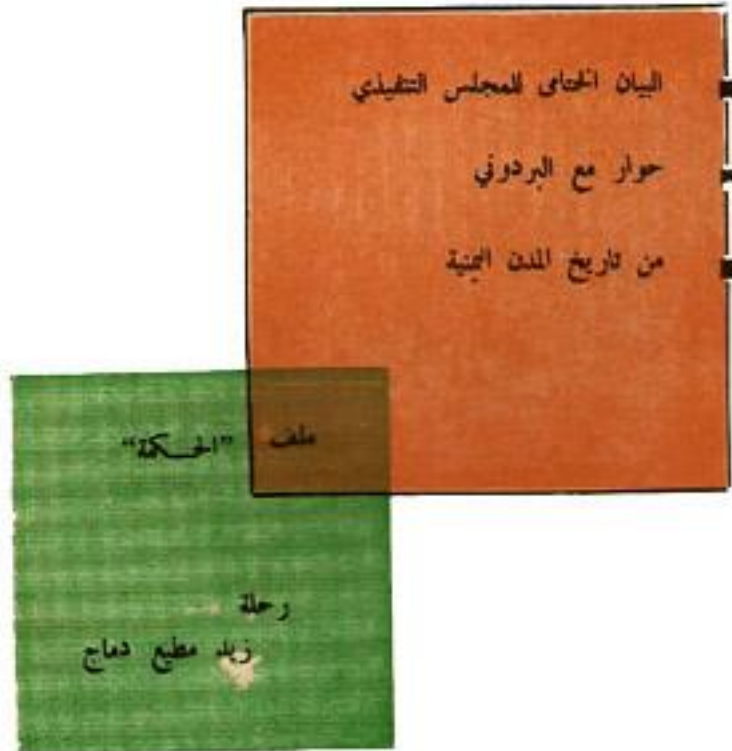
و خلال هذه الفترة الفوضوية أيضاً، نجد أن العوالق و الفضلي كانوا في حروب مستمرة إلا أن اليد العليا كانت للعوالق فهم الذين يفرضون الأتاوة على الفضلي إلى أواخر القرن الماضي. و مما تجدر ملاحظته هنا أن الوثائق العولقية حول هذه الأتاوة كانت تسمي أهل فضل (أهل اليمن) و هم بذلك بالطبع يقصدون أهل الجنوب على أساس إستخدام لفظة يمن بمعناها الجغرافي و الحميري القديم وهي المناطق اليمنية (يمنت و شامت بمعنى الجنوب و الشمال)، و بعد تحالف السلطان الفضلي مع الإنجليز، منع الإنجليز العوالق من الإستمرار في تلك الأتاوة التي جرت عليها العادة في الماضي و كان العوالق يسمونها (حقوق عرفية).

و منذ أن تحوّلت العاصمة إلى زنجبار، بدأت شقرة تفقد أهميتها تدريجياً، و هي الآن عبارة عن قرية كبيرة للصيادين و الروائح التي تنبعث الآن هي روائح السمك بدلاً من روائح البُن التي كانت تنبعث من مستودعات المدينة قبل أكثر من مئة عام.

.....
* القسم الثاني من بحث بعنوان: من تاريخ المدن اليمنية. مكوّن من ثلاثة أقسام.
** يوجد بحث آخر نشر عام 1983م بعنوان "عدن عبر التاريخ" يشمل مدن مدينة عدن فقط. (للمزيد راجع: "قائمة الأعمال" و "الصفحة الرئيسية").

الحكمة

أول فبراير ١٩٧٦م - العدد ٤٧ - السنة الخامسة



لسان حال اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين